كتابك

١٥٧

على النجدى ناصف

تاريخ النحو

دار المعارف

اقرأ ١٥٧
رئيس التحرير أنيس منصور

على النجدى ناصف

تاريخ النحو

دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

مدخل

أقدم فى هذه الصفحات المعدودة موجزًا لتاريخ النحو العربى فى نشأته وتطوره ، وعوامل التأثير فيه ، وأشهر علمائه الذين حملوا أمانته ، فحفظوها ، وأدوها أحسن الأداء ، وأحقه بالإعجاب .

ومجال القول فى تاريخ النحو العربى ذو سعة لمن أراد الإفاضة فيه والانطلاق : فهو أول عِلم دُوِّن فى الإسلام ؛ إذ مضى على مولده قرابة أربعة عشر قرناً لم يكن فيها لَقى مهملاً ، ولا نَسياً منسيًّا ، ولكن تتابعت عليه أجيال من العلماء الجادّين ، يتّفقون قصدًا وغاية ، وإن اختلفوا وطناً وجنساً ، وشخصية ومنهج تفكير .

وكان فيهم علماء أفذاذ ، آتاهم الله ما يشاء من الكفاية وفَضْل المزية ، وإنّ كلاًّ من هؤلاء وهؤلاء ليبذل فيه كل ما يفتح الله به عليه ، وما تهديه تجربته إليه ، ويصوره خياله له فى الجانب أو الجوانب التى طاب له أن يتناوله منها ، فكانت لنا هذه الثروة الضخمة النفيسة ، من مؤلفاته المتعددة الموضوعات والأحجام .

ولم يكن إذ ذاك تخصص فى العلوم ، ولكنها كانت شَرِكة بين طلابها جميعاً ، فهم يتواردون عليها كلها ، أو على جملة صالحة منها ، ثم يغلب على كلٍّ ما يغلب عليه منها ، وكان النحو خاصة لا يطلب هَوْناً ، أو يُترك استغناء إيماناً صادقاً بحاجة كل ذى علم إليه ، فهو مِعيار اللغة ، ومفتاح سرها ، ووسيلة الفهم عنها .

من أجل ذلك لم يكتف جمهورهم بعلم ما فيه الكفاية منه ، ولكنهم توسعوا فيه ، وشاركوا المنقطعين له فى الرأى والتأليف .

وإذا كان بسط التاريخ أقدر على الاستيعاب والتبيين من إيجازه — فإن الإيجاز أقدر منه على الجمع والتقريب ، لأنه اختيار وانتقاء ، ولكلٍّ مقام مقاِل كما يقولون . وقد جهَدت ما استطعت ألا أدع شيئاً مما بدا لى أنه حقيق بالذكر إلا جئت به فى نطاقه المحدود .

وعسى أن يكون فى ذلك بلوغ غاية ، وإدراك حاجة ، إن شاء الله تعالى .

على النجدى ناصف

أولية النحو

النحو نوعان : بَصْرى ، وكوفى . والبصرى أسبق وجوداً من الكوفى ، وإليه يُرَدّ وضع النحو ، ما فى ذلك خلاف ولا مراء ، فمن حقه علينا أن نبدأ به . والحديث عنه ذو شقين : الأول عن بيئة النحو والآخر عن واضعه .

بيئته :

نشأ النحو فى البصرة ، وما كان له أن ينشأ فى غيرها : فهى المدينة التى اشتدت فيها الحاجة إليه قبل غيرها ؛ إذ لم تكد تُمصَّر ، ويتسامع الناس بها وبوفرة الخيرات فيها حتى انثالت إليها أفواج من العرب ، وأخرى من العجم .

وتوالت الهجرة إليها على تعاقب وازدياد ، حتى بلغت عِدّة مقاتلتها أيام كان زياد والياً عليها – ثمانين ألفاً ، وبلغت عدة عيالهم مائة وعشرين ألفاً [1] ، وكان تمصيرها سنة ١٤ ، وولاية زياد سنة ٤٥ فكل ما بينهما نحو ثلاثين عاماً .

وعاش أهل البصرة من العرب والعجم كما يعيش أهل الوطن الواحد

---

(١) البيان والتبيين : ٢/١٣٠.

من أصول مختلفة ، تجمعهم أواصره ، وتدعوهم دواعى العيش فيه إلى التفاهم والمعاملة ، ولا يمكن أن يتم تفاهم ، وتتيسر معاملة إلا باللغة ، فلم يكن بد لهذه الأخلاط من اصطناع لغة واحدة ، إلى جانب لغاتها المتعددة ، فكانت العربية هى هذه اللغة ، لأنها لغة الدولة القائمة ، ولسانها الرسمى ، وهيهات أن تستطيع الجاليات الأجنبية إتقان الفصحى والتحدث بها ، كما يتقنها ويتحدث بها العرب الخلّص .

لذلك أصبحت العربية عربيتين : فصيحة يصطنعها العرب ، وأخرى يشوبها قليل أو كثير من اللحن والتحريف ، يتحدث بها المستعربون فى الحياة العامة ، على أن اللحن والتحريف كانا يشوبان لغة العرب أو بعضهم أيضاً ، ولكن بمقدار ، وعلى تفاوت واختلاف :

فقد رووا أن عمر — رضى الله عنه — جاءه كتاب من عامله على ميسان ، وقد لحن كاتبه فيه ، فكتب عمر إلى العامل : أن قنع كاتبك سوطا [١] !

وشىء آخر يؤيد ظهور النحو فى البصرة ، وهو : أن الإمام عليًّا ، وعبد الله بن عباس ، وأبا الأسود الدؤلى — كانوا يقيمون بالبصرة ، سبق إليها أبو الأسود ، وجاءها الإمام وابن عباس أيام الفتنة الكبرى ، ويتنازع الرواة نسبة وضع النحو إلى ثلاثتهم فى كثير من الروايات . ومعقول أن يكون وضع النحو إبان هذه الحقبة ؛ إذ كان خِلَاط العرب

---

(١) البيان والتبيين : ٢ / ٢١٧ .

والعجم حينئذ أشد ، واللحن فى العربية أكثر ، والحاجة إلى النحو آكد .

وقد كان عمر - رضى الله عنه - ملهماً حين كتب إلى أبى موسى الأشعرى فى ولايته على البصرة أن يكل إلى أبى الأسود تعليم الإعراب [١]

واضع النحو :

وردت روايات شتى عن واضع النحو ، تتحدث عنه من جوانبه المختلفة . تتحدث عن سبب وضعه ، وعن واضعه ، وعما وضع منه أول الأمر . فأما سبب وضعه فظهور اللحن ، واستفحال خطره على مر الأيام .

وكانت العرب تمقت اللحن أشد المقت ، وتراه منقصة تزرى بصاحبها ، لا فى مطلع الإسلام فحسب ، ولكن فيما تلاه كذلك إلى أمد بعيد ، وكانوا لا يسكتون عن لحنة تعرض ، بل لا بقرون على شك منها ، لا فى قول يقال ، ولا فى نص يروى .

فقد حدثوا أن جارية غنت فى مجلس الواثق بقول الشاعر [٢] :

---

(١) فتوح البلدان : ٣٨٤ والإصابة رقم : ٤٩٦٣.

(٢) هو العرجى فى درة الغواص : ٤٣ ، والحارث المخزومى فى الخزانة : ١/٢١٧ وانظر إنباه الرواة : الصلب والحاشية : ١/٢٤٩.

أظلوم إن مصابكم رجلاً أهدى السلام تحية ظلم

فأنكر عليها بعض أهل المجلس أن نصبت (رجلاً) فى البيت ، بظن أنه خبر إن ، فالوجه رفعه : والصواب أنه مفعول به للمصدر مصاب ؛ لأنه بمعنى إصابة ، وأبت الجارية أن تغير الضبط ، وقالت : إنها قرأته هكذا على أبى عثمان المازنى ، فاستقدم الخليفة المازنى من البصرة ، فأيد رواية النصب وشرح وجهه .

وقد وردت روايات كثيرة تعزو وضع النحو إلى أبى الأسود ، بلا خلاف بينها ، إلا فى سبب وضعه والمضىّ فيه : أكان إحساساً بضرورته . أم كان إشارة من عمر[١] . أم من الإمام على[٢] . أم من زياد[٣] ؟ .

ويبدو أن الأمر شُبه على القائلين بإشارة عمر ، وإشارة زياد ، فحَسِب الأولون أن عهد عمر إلى أبى الأسود فى تعليم الإعراب – يعنى إشارة بوضع النحو ، وحَسِب الآخرون أن نقط أبى الأسود للمصحف فى عهد زياد هو الإشارة بوضعه . أما القائلون بإشارة الإمام على فلم يُبعدوا ، لأن أبا الأسود كان من أخص شيعته المقربين ؛ فمن الطبيعى أن يكون على صلة مّا بنحو أبى الأسود ، إشارة به ، أو إرشاداً فيه .

---

(١) نزهة الألبا : ٧ – ٩.

(٢) طبقات القراء : ١ / ٣٤٥.

(٣) مراتب النحويين : ٩ .

ويُروى أن واضع النحو هو الإمام نفسه ، وأن أبا الأسود أخذه عنه(١) . ولا يتعاظم الإمام أن يضع النحو لو أراده ، فعبقريته لا خلاف عليها ، لكن الأعباء التى كان يضطلع بها أثقل من أن تتيح له التفكير فى ذلك ؛ إذ كان – كرم الله وجهه – موزَّع الجهد والفكر لتثبيت دعائم الدولة ، وإقامة أحكام الدين ، وتدبير شئون الرعية ، وإحباط المكايد .

وفى أخبار أبى الأسود شواهد تدل على أنه كان – كما توسم فيه عمر – صاحب حس لغوى مرهف ، يستطيع به تمييز الأساليب بعضها من بعض ، وإدراك ما يكون بينها من أوجه الخلاف والمشابهة ، وما يكون لذلك من أثر فى المعنى صحة وفساداً .

فقد رووا أن أصهاره من بنى قشير كانوا يعلمون مبلغ حبه وإخلاصه للإمام على . وأنهم كانوا – إغاظة له – ينالون من الإمام بحضرته ، فقال فى ذلك قصيدة ينكر إساءتهم له ، ويؤكد وفاءه بالعهد وإخلاصه للعقيدة ، ومنها فى آل البيت :

أُحب محمداً حبًّا شديداً وعباساً وحمزة والوصيّا
بَنى عمِّ النبى وأقربيه أَحبّ الناس كلهم إليّا
فإن يك حبهم رشداً أُصبْه ولست بمخطئ إنْ كان غيّا

فقالت بنو قشير : شككت يا أبا الأسود فى صاحبك حيث تقول :

فإن يك حبهم رشداً أصبه .

(١) إنباه الرواة : ١/٥ .

فقال أبو الأسود : أما سمعتم قول الله عز وجل : ﴿وإنّا أوْإيّاكم لَعلى هُدى أو فى ضلالٍ مبين﴾ (١) . فأبو الأَسود يعلم من أسرار البيان مالا يعلمون ، وأحالهم فى الحِجاج على الآية لعلهم يفهمون أن الكلام قد يكون فى ظاهره شكاً ، وما هو فى حقيقته بشك ، ولكنها التورية اللطيفة يُصار إليها أحياناً .

ويصف أبو الأسود مبلغ حسه اللغوى من الرقة وصدق التمييز ، فيقول : إنى لأجد للحن غَمَراً كغمر اللحم (٢) .

ويذكر ابن النديم أنه رأى أربع ورقات يحسبها من ورق الصين ، ترجمتها : هذه فيها كلام فى الفاعل والمفعول من أبى الأسود — رحمة الله عليه — بخط يحيى بن يعمر ، وتحت هذا الخط بخط عتيق : هذا خط علان النحوى ، وتحت هذا الخط النضر بن شميل (٣) . وهذا كلام رجل ثقة لا يحدث بما سمع ، ولكن بما رآه رأى العين .

ويذهب بعض الباحثين إلى أن أبا الأسود كان على صلة بالسريانية ، والأرجح أنه قد تعلمها (٤) ؛ ورأى آخر : أن يعقوب

---

(١) الأغانى : ١١٢/١١ ، ١١٣ ، والآية فى سورة سبأ : ٢٤ .

(٢) طبقات النحويين : ١٥ ، والغمر ، بالتحريك : الدسم وزهومة اللحم .

(٣) الفهرست : ٦٠ ، ٦١ .

(٤) اللغة والنحو : ٢٥٠ ، ٢٥١ .

الرهاوى كان معاصراً لأبى الأسود ، وأن له كتاباً فى نحو السريانية [١] . وكلا المقولين يشعر بأن النحو العربى ليس عربيًّا صريحاً ، وأن أبا الأسود قد أفاد له من السريانية على نحو مّا ! وهو كلام يقوم – كما ترى – على مجرد الظن ، ويكثر ترداد مثله كلما ذُكرت أوليات علوم العرب . كأنما كُتب عليهم من بين خلق الله أن يكونوا أبداً تلاميذ لغيرهم فى العلوم ، **وهو كلام يمكن قبوله والتسليم به حين يكون له سند غير الحدس والتخمين .**

وتقتضى طبيعة الأشياء أن يكون ما وضعه أبو الأسود من النحو مجرد ملاحظات يسيرة ، هُدِىَ إليها بالنظر فى الأساليب واستقرائها على قدر الطاقة فى المقامات المتنوعة ، وتيسر له بفضلها أن يستنبط منها ضوابط لا تبلغ مبلغ القواعد التى تُقرر الأحكام فى اطّراد وشمول .

ومن يكن مثل أبى الأسود فى سلامة الفطرة ولطف الحس لا يستعصى عليه أن يهتدى إلى هذه الأوليات وزيادة . وما كان الخليفة عمر ليختاره معلّما للإعراب إلا وهو صالح له ، وكاف فيه ! وقد كانت العرب أو أناس منها يدركون فروق المعانى المختلفة فى العبارات التى تختلف فيها حركات الإعراب أو طرائق التعبير تقديماً وتأخيراً ، وذكراً وحذفاً .

ومن ذلك أن أعرابيا سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى : (. . . أَنّ اللهَ برىءٌ من المشركين ورسوله) [٢] بجرلام رسوله ، فقال الأعرابى : أو بَرِئَ اللهُ

---

(١) مجلة مجمع اللغة العربية : ٢٤٨/٧ . (٢) التوبة /٣ .

من رسوله[١] ؟ . ويقول سيبويه ، فيما يقول : ليس من العصبية إذن ولا من التجنى على الحقيقة أن نقول مع القائلين : إن النحو العربى عربى النسب ، وما هو بالدخيل ولا الهجين .

---

(١) صبح الأعشى : ١/ ١٢٩ .

النحو وأشهر النحاة

من أبي الأسود إلى سيبويه

لم يكد أبو الأسود يضع النحو . ويعلم الناس نبأه عنه حتى أقبل تلاميذه عليه ، يأخذون عنه ، ثم يأخذ تلاميذهم عنهم من بعده . وهكذا جعل النحاة يتتابعون مع الأيام طبقات ، يأخذ اللاحقون منهم عن السابقين ، وجعَل النحو ينمو غرسه ، ويشتد عوده دراكاً عصراً بعد عصر ، حتى كأن القوم قد أعدهم الله له من قبل على أفضل ما يكون الإعداد ، فما بهم إلا أن تُومض وَمضة البدء ، وتشير إشارة التوجيه ليمضوا به خفافاً ، فإذا هم بعد قليل قد طَوَوا به شوطاً بعيداً لم يكن ليبلغه لولا العمل الدائب والجهد المتصل .

فهذا بلال بن أبي بردة والى البصرة يدعو إلى مجلسه عبد الله ابن أبي إسحق وأبا عمرو بن العلاء ، وهما من روّاد النحاة ؛ ليتناظرا بين يديه . ثم يقول أبو عمرو عما انتهت إليه المناظرة : « فغلبنى ابن أبي إسحق بالهمز »[1] فقد اتسع ميدان النحو يومئذ حتى سمح لهذين العالمين الجليلين أن يتجاولا فيه جولات متكاملة ، يتحقق بها الغلب

---

(١) طبقات النحويين : ٢٥ .

والهزيمة ، ولم يكن مضى على ظهوره إلا قرابة أربعين عاما ؛ إذ كانت وفاة أبي الأسود سنة ٦٩ ، وولاية بلال سنة ١٠٩ .

وسنترجم هنا أبا الأسود ، وأشهر النحاة الذين جاءوا من بعده إلى سيبويه بترتيب سنى الوفاة :

١- أبو الأسود :

المشهور أن اسمه ظالم بن عمر (١) ، يرتفع نسبه إلى الدئل بن بكر ، وإليه ينسب ، ولد بمكة ، ورحل إلى المدينة ، فروى عن عمر ، وقرأ على عثمان وعلى (٢) ، ثم أشخصه عمر إلى البصرة فى ولاية أبي موسى الأشعرى ليعلم الناس الإعراب (٣) . وولاه الإمام قضاء البصرة ، ثم جعله والياً عليها بعد ابن عباس حين خرج إلى مكة مغاضباً للإمام (٤) . وتوفى أبو الأسود بالبصرة سنة ٦٩ .

وكان – رحمه الله – من أوفى الشيعة للإمام ، وأشدهم إخلاصاً له ، وهو الذى وَضع النحو ، وضبط المصحف الشريف . ومن

---

(١) الأنساب : ٢٣٣ ، وتاريخ ابن عساكر : ٤٨٨/١٨ .

(٢) طبقات القراء : ٣٤٦/١ .

(٣) إنباه الرواة : ١٦/١ .

(٤) طبقات ابن سعد : ٧ ، والإصابة : ٣٠٤/٣ ، وإنباه الرواة : ٣٨٠/١ .

قراءاته : (أَلَا إنهم تَثْنَوْنِى صدورُهم) و (هَيْتِ لك)(١) .

ومن الذين أخذوا عنه يحيى بن يعمر المتوفى سنة ١٢٩ ، وميمون الأقرن ، وعنبسة الفيل ، ولسنا نعرف عن نحوهم شيئًا . ولا نجد لهم ذكرًا فى كتاب سيبويه ، ولا عنهم رواية فيه .

٢- عبد الله بن أبى إسحاق :

هو عبد الله بن أبى إسحاق الحَضْرمى ، أخذ عن يحيى بن يعمر ونصر بن عاصم ، ويقولون : إنه فرّع النحو ، وأعمل القياس فيه ، ودرس الهمز ، وله فيه كتاب . وتوفى سنة ١١٧(٢) .

ومن تقول سيبويه عنه : أنه كان يقرأ آية (ياليتنا نُرد ولا نُكَذِّب بآيات ربنا) الأنعام/٢٧ بنصب نكذب .

٣- أبو عمرو بن العلاء :

اسمه كنيته على المشهور ، وقيل : اسمه زيان ، ولد بمكة سنة ٦٨ ، ونشأ فى البصرة ، وأخذ عن عبد الله بن أبى إسحاق ، ويحيى بن يعمر ، وقرأ على أنس بن مالك ، والحسن البصرى .

---

(١) المحتسب ٣١٨/٢ ، ٣٣٧ والأولى من سورة هود من آية (٥) والأخرى من سورة يوسف من آية (٢٣) .

(٢) مراتب النحويين : ١٢ ، وإنباه الرواة : ٢٠٧/١ .

وهو من القراء السبعة ، وكان إمام أهل البصرة فى القراءات والنحو واللغة وأيام العرب والشعر ، مع الصدق والثقة والزهد ، وكان من أشراف العرب ووجهائها . وتوفى سنة ١٥٤[١] .

ونقل عنه سيبويه أكثر من أربعين نقلاً ، معظمها من طريق يونس ابن حبيب ، ومنها : قوله عن المستثنى بإلا حين يكون الكلام تاماً منفياً : الوجه ما أتانى القوم إلا عبدُ الله . ولو كان هذا بمنزلة أتانى القوم ما جاز أن تقول : ما أتانى أحد ، كما أنه لا يجوز أتانى أحد[٢] .

وقوله : واعلم أن ما كان صفة للمعرفة لا يحسن أن يكون حالاً ينتصب انتصاب النكرة[٣] .

٤ – الخليل :

هو الخليل بن أحمد الفراهيدى الأزدى . ولد سنة ١٠٠ ، وأخذ عن أبى عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر ، وغيرهما ، وخرج إلى البادية يشافه أهلها ، ويأخذ عنهم اللغة ، ويُعَد الخليل من أفذاذ التاريخ ، وأصحاب الأوليات فى العلوم .

آتاه الله حسًّا لغويًّا مدرَّباً ، وذهناً رياضيًّا بارعاً ، وذوقاً موسيقيا

---

(١) مراتب النحويين : ١٣ ، وطبقات النحويين : ٢٨ ، وطبقات القراء : ٢٨٨/١ .

(٢) الكتاب : ٣٦٠/١ .

(٣) الكتاب : ٣٦٠/١ .

مرهفاً ، فبلغ الغاية فى النحو ، واخترع العروض وخرج به على الناس علماً كاملاً ، كما اخترع طريقة تدوين المعاجم ، واستنبط من النحو فى أصوله وفروعه وعلله وأقيسته مالم يسبقه إليه سابق . ونقل عنه سيبويه أكثر من خمسمائة نقل . وكان – رحمه الله – عفيفاً زاهداً متقشفاً ، قضى حياته منقطعاً للعلم والتعليم ، وتوفى سنة ١٧٥ [١] .

٥- يونس بن حبيب :

هو أبو عبد الرحمن يونس بن حبيب الضبى ، ولد سنة ٩٠ ، وأخذ عن أبى عمرو ، ويقولون : إنه كان صاحب قياس فى النحو ، وله مذاهب تفرد بها . وقد نقل عنه سيبويه نحو مائتى نقل . وأكثر ما نقل عنه بابان من التصغير ، فقال : وجميع ما ذكرت لك فى هذا الباب ، وما أذكره لك فى الباب الذى يليه قول يونس [٢] . وتوفى سنة ١٨٢ .

ومما نقل عنه قوله : « وسمعنا بعض العرب يقول : (الحمدُ للهِ ربَّ العالمين) فسألت عنها يونس فزعم أنها عربية » [٣] وقوله : « ومن ذلك قول العرب : من أنت زيداً ؟ فزعم يونس أنه على قوله : من أنت

---

(١) مراتب النحويين : ٢٧ – ٤١ ، وطبقات النحويين : ٤٣ – ٤٧ ، وإنباه الرواة : ٣٤/١ – ٤٧ .

(٢) الكتاب : ١٠٩/٢ . ونشأة النحو : ٨١ .

(٣) الكتاب : ٢٤٨/١ .

تذكر زيداً ، ولكنه كثر فى كلامهم ، واستُعمل واستغنَوا عن إظهاره [١] .

٦ – **سيبويه** :

هو عمرو بن عثمان بن قَنْبر . وسيبويه لقبه الذى لا يكاد يُذكر أو يُعرف إلا به . ولد بالبيضاء إحدى مدن فارس ، ونشأ وأقام بالبصرة ، وأخذ عن الخليل ، وأطال ملازمته ، وكان أحب تلاميذه إليه ، وأخذ كذلك عن عيسى بن عمر ، ويونس بن حبيب ، وغيرهما . وهو صاحب أعظم كتاب فى النحو ، وأبقاه على الأيام . وتوفى سنة ١٨٠ [٢] .

كتاب سيبويه : لم يُسمِّ سيبويه كتابه ، ولا جَعل له مقدمة ولا خاتمة ، ولعله كان على نية العود إليه لبعض الأمر ، لكن عائقاً حال دون ما كان ينويه ، ومن قبل سمّى عيسى بن عمر كتابين له ، أحدهما الإكمال ، والآخر الجامع .

على أن القدماء سموه عنه ، إذ أطلقوا عليه اسم الكتاب غير موصوف بوصف ، ولا معين بإضافة ، فكان إذا ذُكر لفظ الكتاب مجرَّداً فهو كتاب سيبويه ، كأنما هو وحده الكتاب على الحقيقة ،

---

(١) الكتاب : ١/١٤٧ .

(٢) مراتب النحويين : ٦٥ وطبقات النحويين : ٦٦ . وإنباه الرواة : ٢/٣٤٦ .

وما سواه فكتاب على المجاز !

وسيبويه لا يقرر فى الكتاب قواعد ، ولا يشترط للأحكام شروطاً ، ولا يلتزم تعريف المصطلحات ، ولا ترديدها بلفظ واحد . وإنما الكتاب فيض غزير من الأساليب والمفردات . وبعض الأساليب مأثور ، وبعضه محدَث ، يعرضها سيبويه ليدرسها ويحللها ، ثم يَقضى قضاءه فيها صحة أو خطأ ، حُسْناً أو قبحاً ، كثرة أو قلة ، وهكذا .

وهو فى أثناء ذلك يعرض صنوفاً من سماعه ، وكثيراً من آراء شيوخه ، ولا سيما الخليل ، فينقدها ، أو يعلق عليها ، أو يجعل منها تماماً للمسألة التى يدرسها ، أو تأييداً لها ، وكذلك يزجى كثيراً من لغات العرب ، وفَيضاً من الشواهد المتنوعة ، بعضُها آيات من القرآن الكريم ، وعِدَّتها : ٣٧٣ ، ولا يفوته أن يذكر قراءاتها عند الحاجة إليها ، وبعضُها الآخر من الشعر ، وعِدَّتها ٨٧١ ، ومن الرجز ، وعدتها ١٩٠ ، ولا يفوته أن يصحح نسبة الشواهد التى يرى أنها منسوبة إلى غير أصحابها (١) .

تلك عدة شواهد سيبويه بحسب إحصائى لها وبعض شواهده من الشعر والرجز غير منسوب إلى قائليه ، لكن العلماء يثقون بشواهده كلها ، ويتقبلونها عنه بقبول حسن . وله شواهد من الأحاديث النبوية ، لكنه لا يذكرها بما يدل على أنها أحاديث ومنها :

---

(١) الكتاب : ١ /٣٣٦ .

١ – سبُّوحا قُدُّوسا ربَّ الملائكةِ والرُّوح [١] .

٢ – ما مِنْ أيام أَحبَّ إلى الله فيها الصومُ من عشر ذى الحِجة [٢] .

٣ – كلٌّ مولود يُولَد على الفطرة ، حتى يكون أبواه هما يُهَوِّدانه ، ويُنصِّرانه [٣] .

ويغلب على عبارة الكتاب التلاحم والانسياب ، حتى ليقل أن تمر فيها بمقطع يحسن الوقف عليه إلا حين يصرف القول عن وجهه إلى شاهد يرويه ، أو سؤال يسأله ، أو حوار يُديره . وهى واضحة بينة حيناً ، وغامضة مبهَمة حيناً آخر . ولا يلتزم الذهاب بها إلى معناها قصداً ، فربما طاب له الاستطراد إلى غير ما يكون فيه من مقام كاستطراده من القول فى الاشتغال إلى القول فى صيغ المبالغة [٤] .

ولا يكتفى سيبويه بواقع النصوص فى استنباط الأحكام ، ولكنه يلجأ أحياناً إلى فرض الفروض ثم يشرِّع لها إكمالاً لصور عقلية تتمثل فى ذهنه ، أو تداركاً لما فات النصوص أن تلم به .

كذلك لا يقتصر على مسائل النحو والصرف ، بل يزيد عليهما مباحث قيِّمة رآها موصولة الأسباب بهما ، ونَقَلها العلماء من بعده إلى

---

(١) الكتاب : ١٦٤/١ ، والحديث فى صحيح مسلم : ٥١/٢ .

(٢) الكتاب : ٣٢/١ ، والحديث فى الجامع الصغير بشرح السراج المنير : ٢٥٥/٣ .

(٣) الكتاب : ٣٩٦/١ ، والحديث فى التجريد الصريح : ٩٣/١ .

(٤) الكتاب : ٥٦/١ .

علوم أخرى . ونكتفى هنا ببيان مواطن بعض هذه المباحث من الكتاب ، ومواطنها من الكتب التى نقلت إليها ، وليست من كتب النحو والصرف .

لقد نقل عبد القاهر إلى أسرار البلاغة [١] من باب استعمال الفعل فى اللفظ لا فى المعنى [٢] ، ونقل ، إلى دلائل الإعجاز [٣] من باب من النكرة يجرى مجرى ما فيه الألف واللام [٤] ، ومن باب ما يحسن عليه السكوت [٥] .

ونقل الثعالبى إلى أسرار العربية [٦] من باب مجارى أواخر الكلم من العربية [٧] ، وباب الحروف التى يجوز أن يليها بعدها الأسماء [٨] .. وباب ما لُفِظ به مما هو مثنى [٩] ...

وتحدث سيبويه فى باب الإدغام حديثاً بارعاً عن حروف الهجاء

---

(١) أسرار البلاغة : ٣٤١ .

(٢) الكتاب : ١/١٠٨ .

(٣) دلائل الإعجاز : ٢٣٣ ، ٢٤٧ .

(٤) الكتاب : ١/١٦٦ .

(٥) الكتاب : ١/٢٨٤ .

(٦) أسرار العربية : ٣٢٢ .

(٧) الكتاب : ١/٧ وما بعدها .

(٨) الكتاب : ١/٤٦٠ .

(٩) الكتاب : ٢/٢٠١ .

وعددها ، أصولاً وفروعاً ، وعن مخارجها وأنواعها ، من مجهور ومهموس وشديد ورخوٍ[١] . . .

ونلاحظ أن سيبويه لم ينقل عن شيوخه فى هذه الأبواب التى ذكرناها : فهل علينا إذا قلنا : إن سيبويه هو واضع البلاغة والتجويد[٢] ؟ .

وسيبويه بعد هذا يشقّق الموضوعات المتشعبة ، ويفرّقها على عدة أبواب : فعرض الاستثناء فى سبعة عشر باباً[٣] ، والترخيم فى اثنى عشر[٤] ، ثم هو يذكر بعض الأبواب فى غير المواقع التى تجانسها ، فوضع القسم وحروفه بين التصغير ونونى التوكيد[٥] .

وبعد ، فلا تعرف العربية كتاباً حَفل به الناس ، وأفادوا منه على تعاقب الأجيال ككتاب سيبويه . فقد ألّفوا عنه كتباً ، وأداروا حوله دراسات لا تحصى كثرة .

ألفوا فى شرحه ، والتعليق عليه ، والتمهيد له ، وترتيب مسائله ، وحل مشكلاته ، وتوضيح غريبه وشرح شواهده ، وتجريد أحكامه .

---

(١) الكتاب : ٢/٤٠٤ .

(٢) تاريخ البلاغة والتعريف برجالها : ٤٣ .

(٣) الكتاب : ١/٣٥٩ .

(٤) الكتاب : ١/٢٣٢ وما بعدها .

(٥) الكتاب : ٢/١٤٣ ، وانظر سيبويه إمام النحاة : ٨٩ - ١٩٢ .

اختصروه ، واختلفوا فيه ما بين متعصب عليه ، ومتعصب له ، وانتصر لهؤلاء أنصار ومؤيدون ومنهم من انقطع له حتى حفظه أو أتقن فهمه وتخصص فيه .

ولم يقدر لسيبويه أن يقرأ الكتاب على أحد أو أن يقرأه عليه أحد ، وإنما قرأه الناس بعده على أبي الحسن الأخفش [١] : فقد ورث – رحمه الله – علم سيبويه ، وكان طريق الناس إليه ؛ كما حمل سيبويه علم الخليل ، وكان طريق الناس إليه .

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٥٠ .

النحو وأشهر النحاة

فيما بين سيبويه وانقسام الدولة العباسية

لم يَشْقَ النحاة بعلاج النحو بعد أن جاءهم كتاب سيبويه . فقد يسّر لهم سبيله ، بما أصل من أصول ، واستخرج من كنوز ، وأقام من حُجج ، وقدّم من شواهد ، والتمس من علل . فلم يَدَعْ لهم إلا أن يدرسوه ، ويروا رأيهم فيه نقداً وخلافاً ، أو مناصرة وتأييداً ، وإلا أن يستوحوه ويستمدوا لمصنفاتهم منه .

وهذ ما كان ؛ فإذا لَنا منهم أصناف من الكتب ، أبْين طريقاً ، وأقوْم تنسيقاً . وليست – مع ذلك – تخلو من رأى سديد ، أو حجة قاصدة ، أو علة ناهضة ، أو شاهد لا مَغْمز فيه . وليس ذلك منهم بالعمل القليل ، ولا هُو بالأمر اليسير ، فتلك غاية ما تقضى به داعية الحال ، وسنة التطور الذى أحدثه كتاب سيبويه فى عالم النحو والنحاة . والآن هلم إلى طائفة من أشهر نحاة هذه الحقبة .

١ – الأخفش :

هو سعيد بن مَسعدة ، الملقّب بالأخفش ، أصله من مَنْبِج ، ثم

سكن البصرة ، وأخذ عن سيبوبه وكان يقول : ما وضع سيبويه شيئاً فى كتابه إلا عرَضه على . وكانت له مكانة رفيعة فى النحو بين البصريين والكوفيين . قرأ النحو على سيبويه ، وهو وحده طريق الناس إلى كتابه ، توفى سنة ٢١٥ على التقريب [١] .

ومن مؤلفاته فى النحو . كتاب المقاييس ، والاشتقاق . وله آراء منثورة فى كتب النحو منها : أنه يُجيز جمع أسماء العدد ، ولا يجيز غيرَه أن يُجمع منها إلا المائة والألف [٢] .

٢ – المازنى :

هو أبو عثمان بكر بن محمد بن بقية ، قرأ كتاب سيبويه على الأخفش . وكان إماماً فى اللغة ، وراوية واسع الرواية ، كما كان بارعاً فى الحِجاج والمناظرة ، توفى سنة ٢٤٩ ، وقيل غير ذلك [٣] .

ومن كتبه : علل النحو ، وتفاسير كتاب سيبويه ، والتصريف ، وقد شرحه ابن جنى ، وهو مطبوع . ومن آرائه النحوية أن جمع المؤنث يجب بناؤه على الفتح مع لا النافية للجنس [٤] .

---

(١) مراتب النحويين : ٦٨ ، وأخبار النحويين البصريين : ٥٠ ، وبغية الوعاة : ٥٩٠/١ .

(٢) الهمع : ٤٣/١ .

(٣) طبقات النحويين واللغويين : ٩٢ ، وبغية الوعاة : ٤٦٣/١ .

(٤) الهمع : ١٤٦/١ .

٣- المبرد :

هو محمد بن يزيد بن عبد الأكبر ، ولد سنة ٢١٠ ، ونشأ بالبصرة ، سمع الكتاب من الجَرْمى ، وأتمه على المازنى . وكان إمام العربية فى عصره ، توفى سنة ٢٨٦[١] .

ومن مؤلفاته : المقتضب ، وإعراب القرآن ، والكامل فى فنون من اللغة والأدب والنحو . ومن آرائه فى النحو : أن المصدر المؤول من أن ومعموليها بعد لو يعرب فاعلاً لثبت محذوفاً[٢] .

٤- الزجاج :

هو أبو إسحاق إبراهيم بن السرىّ الزجّاج ، كان أول أمره يخرط الزجاج ، ثم مال إلى طلب النحو ، فلزم المبرد يأخذ عنه ، ثم اتصل بالمكتفى ، وصار نديماً له ، وتوفى سنة ٣١٠[٣].

ومن كتبه : الاشتقاق ، وفعَلْت وأفعلْت ، وشرح أبيات سيبويه . ومن آرائه النحوية : جواز إعمال لعل وكأن حين تتصل بهما ما[٤] .

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٥٩٦ ، طبقات النحويين : ١٠٨ .

(٢) الهمع : ١٣٨/١ .

(٣) أخبار النحويين البصريين : ١٠٨ ، وبغية الوعاة : ٤١١/١ .

(٤) الهمع : ١٤٣/١ .

النحو الكوفى وأشهر علمائه

بدأ اشتغال الكوفة بالنحو فى حياة الخليل : أى بعد وفاة أبى الأسود بنحو تسعين عاماً ؛ فقد كانت وفاته سنة ٦٩ ، وكانت الكوفة فى خِلال هذه المدة عاكفة على القرآن الكريم ، تَقرؤه وتُقرئه . وعلى الشعر تَرويه وتتناشده ، ولذا كان فيها ثلاثة من القراء السبعة ، هم : عاصم المتوفى سنة ١٢٩ ، وحمزة المتوفى سنة ١٥٦ . والكسائى المتوفى سنة ١٨٦ ، وفى كل مصر قارئ واحد . أما النحو فكانت - على ما يبدو - قانعة منه بما يجيئها من البصرة ، ثم انتبهت إليه وشُغلت به . وأشهر علمائها فيه :

١ - مُعاذ الهرّاء :

هو أبو مسلم معاذ الهرّاء ، نشأ بالكوفة ، وكان يبيع الثياب الهرَويّة ، فعُرف بها . أخذ عنه الكسائى والفراء ، ويقال : إنه أول من وضع التصريف . وتوفى سنة ١٨٧ [١] .

٢ - الكسائى :

هو أبو الحسن على بن حمزة الكِسائى . إمام نحاة الكوفة ، وأحد

---

(١) الفهرست : ٩٦ ، وإنباه الرواة : ٣/٢٨٨ ، وبغية الوعاة : ٢/٢٩٠ .

القراء السبعة ، نشأ بالكوفة ، وأخذ عن الهرّاء ، والخليل . وأقرأه الأخفش كتاب سيبويه ، ورحل إلى البادية فحفظ كثيراً من اللغة ، وعهد إليه الرشيد فى تأديب الأمين والمأمون . توفى سنة ١٨٩ ، ومن كتبه : معانى القرآن ، ومختصر النحو ، ويُعد الكسائى إمام نحاة الكوفة (١) .

ومن آرائه النحوية : جواز إعمال اسم الفاعل وهو ماضى الزمن (٢) .

٣– الفرّاء :

هو أبو زكريا يحيى بن زياد الديلمىّ وُلد بالكوفة ، وأخذ عن الكسائى ، وعن يونس بن حبيب . وكان أبرع الكوفيين فى علمهم . وتوفى سنة ٢٠٧ (٣) .

ومن كتبه : معانى القرآن ، والمذكر والمؤنث ، والمقصور والممدود .
ومن آرائه النحوية : أن الاسم الذى بعد لولا ليس مبتدأ ، بل مرفوع بها ، لاستغنائه بها كما يرتفع الفاعل بالفعل (٤) .

---

(١) طبقات النحويين : ١٣٨ ، وطبقات القراء : ١/٥٣٥ .
(٢) شرح التصريح : ٢/٦٦ .
(٣) مراتب النحويين : ٨٦ ، وطبقات النحويين : ١٤٣ .
(٤) الهمع : ١/١٠٥ .

٤– ثعلب :

هو أحمد بن يحيى المعروف بثعلب ، ولد سنة ٢٠٠ ، وأخذ عن محمد بن سلاّم الجُمَحى ، ومحمد بن زياد الأعرابى وغيرهما ، ودرَس كتب الكسائى والفراء ، وقرأ كتاب سيبويه على نفسه . وهو من أئمة الكوفيين فى النحو ، ومات سنة ٢٩١ . ومن كتبه : اختلاف النحويين ، ومعانى القرآن ، وما ينصرف ومالا ينصرف [١] .

ومن آرائه : أنه إذا سُمى مذكر بمؤنث مجرّد من التاء فإن كان ثلاثيا منع من الصرف سواء أكان محرك الوسط كفَخِذ أم ساكنه كحَرْب [٢] .

---

(١) طبقات النحويين : ١٥٥ ، وإنباه الرواة : ١/١٣٨ ، وبغية الوعاة : ١/٣٩٦ .

(٢) شرح الأشمونى : ٣/١٩٢ .

مدرستا البصرة والكوفة

نشأ النحو فى البصرة . وأقبل علماؤها عليه . يتدارسونه طبقة بعد طبقة ، ويضيفون إلى ما بين أيديهم منه كل ما عسى أن يفتح الله عليهم به . أما أهل الكوفة فكانوا منقطعين للقرآن والشعر ، كما ذكرنا آنفاً ، حتى إذا كان منتصف القرن الثانى تقريباً – تبينوا أن البصرة قد عظُم قدرها ونبُه ذكر علمائها ، بفضل ما صنعوا ويصنعون للعربية – هنالك هبوا يحاولون أن ينافسوهم ؛ ليكون لهم من الفضل مثل ما لهم .

ولما لم تكن لهم سابقة فى النحو – لم يجدوا بدًّا من أن يتّجهوا إلى البصرة ، يطلبون فيها علم مالا يعلمون : فذهب إليها الكسائى فيمن ذهب ، وأخذ عن الخليل ويونس ، ثم قرأ عليه الأخفش كتاب سيبويه . واصطحب الفراء كتاب سيبويه حياته ، لا يكاد يفارقه .

كان نحو الكوفة إذن شعبة من نحو البصرة ، ثم تحوّل عنه فى أصوله ، ومناهج درسه ، لاختلاف الأئمة هنا وهناك فى مصادر الرواية والرأى فيها ، ثم فى سمات الشخصية وطرائق التفكير . فكان للنحو مدرسة فى البصرة ، وأخرى فى الكوفة . وقدِّر لنحو البصرة أن يكون أكثر تداولاً ، وأخلد خلوداً .

وأهم الفروق التى بين المدرستين : أن شيوخ البصرة كانوا لا يروون

إلا عن العرب الخلّص الضاربين فى أعماق الصحراء ، ولا يقبلون الشاهد إلا إذا وثقوا به ؛ لهذا نرى سيبويه يردِّد لفظ الثقة ومشتقاته فيما يرَوى وما يَسمع من الشواهد ، كأنما يريد أن يطمئن أصحابه إلى أنه آخذ على الطريقة التى يتوارثونها . بل لم يكن يفوته أن ينبه على المصنوع من الشواهد أيضاً[1] . أما الكوفيون فكانوا أقل تحرجاً فى الرواية ، وأكثر ترخّصاً فى الاستشهاد .

وأخرى : أن البصريين كانوا يقيمون قواعدهم على الأكثر فى اللغة ، ويأبون أن يتخذوا مادونه مصدراً لاستنباط ، ولا سنداً لرأى . أما ما يخالف الأكثر فربما أولوه بما يردّه إليه وربما عدوه من الضرورات التى لايصار إليها فى الاختيار ، وربما نحّوه جانباً ، وحكموا عليه بالشذوذ .

ويبدو أن أبا عمرو هو صاحب هذا الأصل : فقد سئل عما وضعه من العربية : أيدخل فى كلام العرب كله ؟ قال : لا ، قيل له : فكيف تصنع فيما خالفتك فيه العرب وهم حجة ؟ قال : أعمل على الأكثر ، وأسمى ما خالفنى لغات[2] .

أما الكوفيون فكانوا يأخذون اللغة من حيثما وجدوها ، وكانوا كلما

---

(١) الكتاب : ١ : ٢٦ ، ١٥٣ .

(٢) طبقات النحويين : ٤٣ .

عَرَض لهم شاهد قبِلوه ، وولّدوا منه حكماً له ما لسائر الأحكام [١] . ومن أمثلة الفرق فى هذا بين المدرستين : أن البصريين لا يجيزون تقدم الفاعل على فعله ، ولا يمنعهم منه قول الزبّاء :

ما للجِمال مشيُها وئيدًا أجنْدلا يحملن أم حديدًا ؟

لأنهم يعدونه من قبيل الضرورة ، ويعربون (مشيها) مبتدأ حذف خبره ، وسدت الحال (وئيدًا) مسده ، والتقدير : مشيها يظهر وئيدا . أما الكوفيون فقد أخذوا بالشاهد ، وأجازوا تقديم الفاعل على فعله ، كما قدمت (مشيها) على (وئيدا) [٢] .

ولعل كثرة ممارسة الكوفيين للتلاوة والرواية هى التى أورثتهم الاعتداد بظاهر النص ، وتَهيّب الهجوم عليه بالتأويل ، أو الإنكار . وهذا لا يعنى أن البصرة كانت أقل من الكوفة تحمُّلاً للقرآن ورواية للشعر ، فقد كان الذين يحفظون القرآن كله فى عهد أبى موسى الأشعرى زُهاء ثلثمائة [٣] . وكل ما كان من الأمر هنا وهناك – أن الكوفة آثرت العافية ، وقنعت بما حفظت ، واستمرأت الانقطاع للمعاودة والتكرار ، أما البصرة فقد أتيح لها الحفظ ووضع النحو فظفرت بالحسنَيَيْن . ولم تجد البصرة حاجة إلى الأخذ عن الكوفة ، إلا أبا زيد ، فإنه – فيما يقال –

---

(١) الهمع : ١ : ٤٥ .

(٢) شرح ابن عقيل ، وحاشية الخضرى : ١ : ١٤٤ .

(٣) حلية الأولياء : ١ : ٢٥٧ .

أخذ عن المفضل الضبى [١]

ثم إن البصريين يقدمون السماع على القياس إذا تعارضا [٢] . أما الكوفيون فربما جعلوا كلمة القياس هى العليا وإن لم يعزِّزه شاهد . فقد منعوا تقدم الخبر على المبتدأ مطلقاً ، لئلا يتقدم الضمير الذى فيه على مرجعه ، ففى قائم مثلا من قولنا : قائم زيد ضمير زيد . ولم يأبهوا لتأخر الخبر رتبة وإن تقدم لفظاً ، ولا للمأثور من الشواهد [٣] .

والآن هل للنحو مدارس أخرى ؟ ينبغى قبل الإجابة عن هذا السؤال أن أعرِّف المدرسة . فهى : طائفة من العلماء ، أو الأدباء ، أو أهل الفن تؤلف بينهم فى الإنتاج وصوره أصول ومناهج يلتزمونها ، مع احتفاظ كلٍّ بخصائص شخصيته .

وهكذا كان أئمة النحو الأولون فى البصرة والكوفة إبان نشأته ، فخرج النحو الذى صدر عنهم صدى لما عند كل من الفريقين من مواهب . ولِمَا أصّل من أصول ، وما أمدته العرب به من لغة . ولمّا أن اشتد عوده ، ونضجت ثمرته ، وآل من بعدهم إلى خلفائهم — لم يجدوا به نقصاً فيتُمّوه ، أو صدْعاً فيرْأَبوه ، فلم يبق إلا أن ينظروا فى النحوين ، ويأخذوا لمصنفاتهم من كليهما أرْجَحه عندهم . ومنهم من

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٥٧ .

(٢) الخصائص : ١ : ١١٧ .

(٣) الإنصاف : ٦٥/١ .

جَعل النحو البصرى أصلاً ، وزاد عليه مادعت إليه الحاجة من النحو الكوفى .

وهنا التقى النحوان بين أيديهم ، على سواءٍ فى الدرس والتمحيص ، واختلاف فى مقدار النقل والاقتباس من هذا وذاك تلفيقٌ للنحويْن أخذ النحاة به منذ القرن الثالث ، ولا يزال معمولاً به إلى اليوم ، فهل يصح أن نُطلق على أصحاب هذا التلفيق اسم مدارس ، فنقول مثلاً : مدرسة النحو البغدادية ، أو مدرسة النحو المصرية ، كما جاء فى كتاب المدارس النحوية ؟

يبقى بعد هذا أن النحويين القدماء يردِّدون فى كتبهم آراء يعزونها إلى من يصفونهم بالبغداديين . وقد فَهم بعض الباحثين من هذا أن هؤلاء البغداديين يؤلفون مدرسة نحوية ثالثة ، لكن ثمة دلائل تدل على أن هؤلاء البغداديين هم الكوفيون الذين استقر المقام بهم فى بغداد ، لأن وصفهم بالكوفيين مدعاة إلى اللبس والتخليط :

فالأخفش يقول عن سيبويه مُنصرَفه من بغداد بعد مناظرته للكسائى : «وجّه إلى فجئته ، فعرفنى خبره مع البغدادى» [1] ، ومَن يكون هذا البغدادى ، إذا لم يكن هو الكسائى ؟ ويقول المبرد : ما رأيت للبغداديين كتابا أحسن من كتاب يعقوب بن السكّيت فى

---

(١) طبقات النحويين واللغويين : ٧١ .

المنطق[١] » ، وابن السكيت كوفى[٢] ويقول ابن جنى : لو قال قائل : المبتدأ مرفوع بما يعُود عليه من ذِكْر لقلت : « هذا قول الكوفيين » ، ثم عاد فكرر العبارة فى موضع آخر ، فقال : « ومِن ذلك قول البغداديين : إنما الاسم يرتفع بما يعود عليه من ذِكره »[٣] .

ولئن كان نحو البصرة أحظى عند الناس – لقد كان نحو الكوفة أحظى عند الخلفاء ، إذ كانت الكوفة أقرب من البصرة إلى بغداد ، وفيها كانت البيعة للسفّاح ، ولبثت بعض الوقت حاضرة الدولة . أما البصرة فقد ظهر فيها إبراهيم بن عبد الله بن الحسن يدعو لأخيه محمد . وكان قد خرج بالمدينة فاستجاب لإبراهيم كثير من أهل البصرة ، فاستولى عليها وعلى ما قرب من واسط والأهواز[٤] .

لذلك اتيح للكوفيين أن يسبقوا إلى بغداد ، ففتح الخلفاء لهم أبوابهم . ووكلوا إليهم تأديب أولادهم . فكان الكسائى فى حاشية الرشيد ، ثم مؤدب ولديه[٥] ، وكان الفراء مؤدب ولدى المأمون[٦] ،

---

(١) وفيات الأعيان : ٥ : ٤٣٨ .

(٢) الفهرست : ١٠٧ .

(٣) الخصائص : ١ : ٨ ، ١٩٩ .

(٤) محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية : ٣١ ، ٧٦ .

(٥) إنباه الرواة : ٢ : ٥٦ ، بغية الوعاة : ٢/١٦٣ .

(٦) بغية الوعاة : ٢ : ٣٤٩ .

وكان ابن السكيت ينادم المتوكل[١] ، فأعظمَ الناس نحاة الكوفة ، وأقبلت الدنيا عليهم . ولم يظفر البصريون الذين رحلوا إلى بغداد بمثل ما ظفر الكوفيون به ولا قريب منه ! فأخفق سيبويه فى مناظرة الكسائى ، واتخذ الكسائى الأخفش مؤدباً لأولاده[٢] ، وكان المبرد يعلم الزجاج النحو ، فيعطيه الزجاج كل يوم درهماً أجراً له[٣] .

---

(١) طبقات النحويين : ٢٢١ .

(٢) بغية الوعاة : ١ : ٥٩٠ .

(٣) بغية الوعاة : ١ : ٤١١

النحو وأشهر علمائه

بعد انقسام الدولة العباسية

ضعفت الدولة العباسية . وتزايلت بنيتها . فطمع ولاة الأقاليم فيها ، وأوهنوا صلتهم بها ، وكان آل بويه أجرأهم عليها ، فقد استقلوا بفارس والجزيرة . ثم استولوا على بغداد . وسلبوا الخليفة سلطانه سنة ٣٣٤ .

فنشأت دويلات هنا وهناك : وتعددت الحواضر فيها والأمصار . ولم تبق بغداد – كما كانت قبلة العلماء ومن إليهم . فقد كان حكام الدويلات يَجدّون فى تأثيل ملكهم . ويجتذبون العلماء والشعراء إليهم فقصدوهم وأقاموا فى ظلالهم قليلاً أو كثيراً . لذلك بقيت الحياة العلمية على قوتها ونشاطها ، بل لعلها زادت قوة على قوتها ونشاطاً على نشاطها .

أشهر نحاة شرق دجلة

١ – السيرافى :

هو أبو سعيد الحسن بن عبد الله السيرافى . ولد بسيراف . حوالى سنة ٢٨٨ ، وأخذ اللغة والنحو عن بعض علماء عصره . وكان عالماً حجة ، أميناً ديِّناً ورِعاً . توفى ببغداد سنة ٣٦٨ .

ومن كتبه : شرح كتاب سيبويه ، والوقف والابتداء ، وأخبار النحويين البصريين[١] . وعنده أن كان الزائدة ترفع ضمير المصدر الذى تدل عليه فاعلاً لها[٢] .

٢ - الفارسى :

هو أبو على الحسن بن أحمد الفارسى ، ولد بِفَسا مدينة قريبة من شيراز ، وأخذ عن ابن السراج وغيره . رحل إلى أقطار من الدولة ، وتوفى ببغداد سنة ٣٧٧ . وله مصنفات كثيرة ، منها الإيضاح فى النحو ، والتكملة فى الصرف ، والحجة فى علل القراءات السبع[٣] .

ومن آرائه أن الأسماء الستة لا تعرب بالحروف . ولكن بحركات مقدرة عليها[٤] .

٣ - ابن جنى :

هو أبو الفتح عثمان بن جنى ، نشأ بالموصل ، واتصل بأبى على الفارسى ، يأخذ عنه ويستمليه ، وتوفى سنة ٣٩٢ . ومن مؤلفاته :

---

(١) إنباه الرواة : ١ : ٣١٣ ، وبغية الوعاة : ١ : ٥٠٧ .

(٢) الهمع : ١ : ١٢١ .

(٣) طبقات النحويين : ١٠٣ ، وإنباه الرواة : ١ : ٧٣ .

(٤) الهمع : ١ : ٣٨ .

الخصائص ، وشرح تصريف المازنى ، والمحتسب ، وهى مطبوعة ، وسر صناعة الإعراب ، وقد طبع منه جزء واحد[١] .

ومن آرائه النحوية : أن إذا الفجائية ظرف مكان[٢] .

٤ – الزمخشرى :

هو أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى ، ولد بِزَمَخْشر سنة ٤٦٧ ورحل إلى خراسان والعراق ، وجاور بمكة المكرمة . وكان من أعلم الناس بالنحو واللغة والتفسير ، وغريب الحديث . وتوفى بخوارزم سنة ٥٣٨

ومن كتبه : المفصل والنموذج فى النحو ، وأساس البلاغة فى اللغة ، والفائق فى غريب الحديث[٣] ومن آرائه : أن لن تفيد توكيد النفى وتأييده[٤] .

---

(١) إنباه الرواة : ٢ : ٣٣٥ ، وبغية الوعاة : ٢ : ١٣٢ .

(٢) الهمع : ١ : ٢٠٧ .

(٣) إنباه الرواة : ٣ : ٢٦٥ ، وبغية الوعاة : ٢ : ٢٧٩ .

(٤) المغنى : ١ : ١٢٤ .

النحو فى مصر والشام وأشهر علمائه

شاء الله تعالى أن تكون مصر والشام صِنْوين . وكلما فرقت بينهما الأحداث عادت فجمعتهما على المودة والإخاء ؛ لذلك سأجمع تراجم أشهر النحاة فيهما ، كما تجمع تراجم أبناء الوطن الواحد .

١ – ابن بابشاذ :

هو أبو الحسن طاهر بن أحمد . أصله من العراق ، ونشأ بمصر ، وتصدر للإقراء فى جامع عمرو بن العاص . ثم انقطع للعبادة ، وتوفى سنة ٤٩٦ .

ومن مؤلفاته شرح جمل الزجاجى ، والمحتسب فى النحو [١] . ومن آرائه أن إذن تنصب الفعل مع الفصل بينها وبينه بالنداء ، والدعاء [٢] .

٢ – ابن مُعْط :

هو أبو الحسن بن زين الدين ، ولد بحلب سنة ٥٥٣ ، ورحل إلى

(١) إنباه الرواة : ٢ : ٩٥ ، وبغية الوعاة : ٢ : ١٧ .

(٢) المغنى : ١ : ١٩ .

دمشق فأقرأ بها النحو وبمصر. وتوفى فى القاهرة سنة ٦٢٨ .

وله ألفية فى النحو، وحواش على أصول ابن السراج، وكتب أخرى[١] . ويختار من أحكام النحو أن ينوب الجار والمجرور عن الفاعل حين يجتمع هو والمصدر والظرف بعد فعل مبنى للمجهول[٢] .

٣ - ابن يعيش :

هو موفق الدين بن على المشهور بابن يعيش . ولد بحلب سنة ٥٥٣ ، وأخذ عن علمائها ، وكان بارعاً فى النحو والصرف . وتوفى بحلب سنة ٦٤٣ .

ومن كتبه شرح التصريف لابن جنى ، وشرح المفصل للزمخشرى[٣] ، وهو يؤيد أن الفاء فى مثل : (قل إنّ الموت الذى تَفرُّون منه فإنه مُلاقِيكم) واقعة فى خبر إن لا زائدة[٤] وهى من سورة الجمعة من آية (٨) .

---

(١) بغية الوعاة : ٣٤٤/٢ ، ونشأة النحو : ٢١٥ .

(٢) الهمع : ١ : ١٦٩ .

(٣) بغية الوعاة : ٣٥١/١ .

(٤) شرح المفصل : ١ : ١٣٤ .

٤ – ابن الحاجب :

هو عثمان بن عمر ، المعروف بابن الحاجب ، ولد بإسنا حوالى سنة ٥٧٠ ، ونشأ بالقاهرة ، ولازم الأخذ عن العلماء ، وكان من أذكى الناس ، فنبغ فى علوم شتى ، وغلب عليه النحو ، وتوفى فى الإسكندرية سنة ٦٤٦ .

ومن مصنفاته : الكافية وشرحها فى النحو ، والشافية وشرحها فى الصرف ، والأمالى . وغيرها[١] . وعنده أنه يجوز أن يكون خبر أن المذكورة بعد لو اسما إذا كان جامدا[٢] .

٥ – ابن هشام :

هو عبد الله جمال الدين بن يوسف الأنصارى . ولد بالقاهرة سنة ٧٠٨ ، وأتقن العربية حتى فاق أقرانه ، وتوفى بالقاهرة سنة ٧٦١ . وله مؤلفات كثيرة قيمة ، منها مغنى اللبيب ، وأوضح المسالك ، وشذور الذهب وشرحه[٣] .

ويعد المغنى أبرع كتبه وأنفعها ، فقد ضمنه شرحاً وافياً لحروف

---

(١) بغية الوعاة : ٢ : ١٣٤ .

(٢) الهمع : ١ : ١٣٨ .

(٣) بغية الوعاة : ٢ : ٦٨ .

المعانى ، وأورد فيه كثيراً من القضايا ، مقرونة بالآراء التى قيلت فيها ، ثم مناقشة منصفة تؤيدها الشواهد والحجج ، وهو لا يجيز ذكر أو بعد سواء .

٦ – ابن عقيل :

هو أبو عبد الله بن محمد . أصله من همذان . ولد سنة ٦٩٨ ، وكان إماماً فى العربية . وتوفى سنة ٧٦٩ ، ومن كتبه شرح التسهيل ، وشرح ألفية ابن مالك [١] . وهو من أسهل كتب النحو وأشهرها .

٧ – الشيخ خالد الأزهرى :

هو خالد بن عبد الله ، ولد بجرجا ، ومهر فى النحو وعلوم اللغة ، وأقرأ فى الأزهر ، وإليه ينسب . وتوفى سنة ٩٠٥ . ومن كتبه : شرح كتاب الإعراب عن قواعد الإعراب لابن هشام ، والتصريح بمضمون التوضيح ، المشهور بشرح التصريح على التوضيح [٢] . وهو أجل كتبه .

٨ – السيوطى :

هو عبد الرحمن جلال الدين بن أبى بكر. لازم أشياخه ، ينهل من

---

(١) بغية الوعاة : ٢ : ٤٧ .

(٢) الكواكب السائرة : ١ : ١٨٨ ، وشذرات الذهب : ٨ : ٢٦ .

معارفهم حتى تضلع رِيًّا . وانقطع للتصنيف ، فصنف قدراً عظيماً من الكتب فى مختلف العلوم ، وتوفى سنة ٩١١ [١] .

وكتابه همع الهوامع من أنفس كتب النحو فى جمع المسائل ، واختلاف المذاهب ، واستيعاب الآراء ، ولا يخلو الكتاب من بعض الاختيارات ، ومن اختياره فى إعراب بحسبك درهم أن يكون بحسبك خبراً مقدماً ، ودرهم مبتدأ مؤخراً [٢] .

٩ – الأشمونى :

هو على نور الدين بن محمد من علماء عصره المعدودين . وأشهر كتبه منهج المسالك إلى ألفية ابن مالك [٣] .

كتاب واسع الشهرة ، ينتهى كل باب فيه بخاتمة تتضمن حقائق لا تخلو من طرافة وفائدة .

١٠ – الصبان :

هو محمد بن على . ولد بالقاهرة ، وأخذ مختلف العلوم عن شيوخ عصره . وتوفى سنة ١٢٠٦ [٤] .

ومن مؤلفاته حاشيته على شرح الأشمونى للألفية ، وهى أشهر حواشى النحو ، حافلة بالمنقول والتعقيبات والجدل والآراء .

---

(١) حسن المحاضرة : ١ : ١٨٨ .
(٢) الهمع : ١ : ٩٣ .
(٣) شذرات الذهب : ٨ : ١٦٥ .
(٤) تاريخ الجبرتى : ٢ : ٢٢٧ .

النحو فى الأندلس والمغرب وأشهر علمائهما

كان السلف من علمائنا – يكثرون الارتحال إلى الأقطار الإسلامية المختلفة ، وخاصة العراق ، ليلقوا علماءها ، ويطّلعوا على ما عندهم من العلم ، ثم يعودوا بما جمعوا من كتب وماوعوا من علم .

وإذا كان ديدن العلماء الرحلة إلى البلاد البعيدة – فأولى أن تكون بين الأندلس والمغرب ، لكن يبدو أن أهل الأندلس كانوا أكثر ارتحالاً إلى المغرب من أهل المغرب إلى الأندلس .

وقد قيض الله للأندلس فى مطلع الدولة الأموية رواداً من العلماء ، وصلوها بالمشرق ، بما نقلوا إليها من كتب الشريعة والنحو .

وكان نحو الأندلس أقرب إلى نحو الكوفة ، لأن كتاب الكسائى كان أسبق إليهم [١] وكان الأندلسيون أهل قرآن كالكوفيين ، ولم يستطع كتاب سيبويه إذ جاءهم أن يعدّل من منهجهم كثيراً . فهذا ابن مالك أعظم نحاتهم – يوافق الكوفيين فى كثير من آرائهم ، ويكثر الاستشهاد بالحديث مالم يكثر غيره .

(١) طبقات النحويين : ٢٧٨ .

أشهر نحاة الأندلس والمغرب

١ – ابنُ مضاء :

هو أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء ، ولد بقرطبة سنة ٥١٣ ، وكان عارفاً بصنوف العلم ، ومات بإشبيلية سنة ٥٩٢ .

ومن مصنفاته : المشرق فى النحو ، والرد على النحاة[١] ، وقد أنكر نظرية العامل فيما أنكر فيه على النحاة ، وغلا فى ذلك غلوًّا كبيراً . وقد كان لنشر هذا الكتاب صدى قوىّ بين المشتغلين باللغة العربية ، فمنهم من تحمس له ، ومنهم من مقته وازورّ عنه .

٢ – الشلوبين :

هو عمر بن محمد المعروف بالشلوبين . ولد بإشبيلية سنة ٥٦٢ ، وكان إمام عصره فى العربية ، فكثر الآخذون عنه . وتوفى سنة ٦٤٥ .

ومن مصنفاته : التوطئة فى النحو ، وتعليق على كتاب سيبويه[٢] . ومن آرائه أنّ ليس ولا تنفيان الأزمنة الثلاثة ، كما يقول قوم ، ولكنهما فى الأصل لنفى الحال مالم يكن الخبر مخصوصاً بزمان[٣] .

---

(١) بغية الوعاة : ١ : ٣٢٣ .

(٢) بغية الوعاة : ٢ : ٢٢٤ .

(٣) الهمع : ١ : ١١٥ .

٣ – ابن مالك :

هو محمد جمال الدين بن عبد الله . ولد بجبّان سنة ٦٠٠ ، وأخذ العربية عن غير واحد ، واعتمد على ذكائه فى تحصيل الكثير من علمه .

رحل إلى الشام ، وتنقل بين مدنه ، ثم استقر فى دمشق ، وتصدر للتدريس فيها حتى لقى ربه سنة ٦٧٢ . وله مصنفات كثيرة منها : تسهيل الفوائد وتكميل المقاصد ، والكافية الشافية ، وخلاصتها المعروفة بالألفية [١] ، وقد نالت شهرة واسعة بين كتب النحو عامة . وظفرت بعناية كثير من العلماء ، فشرحوها شروحا مختلفة ، حتى صارت لها السيطرة على دراسة النحو . ومن آرائه : وقوع (إذ) مفعولا به [٢] .

٤ – ابن آجرّوم :

هو محمد بن محمد الصِّنهاجى ، ولد سنة ٦٧٢ ، وعاش بفاس ، وله مصنفات أشهرها : المقدمة المعروفة بالآجرّومية . وقد نفع الله بها كثيراً من طلاب العلم المبتدئين .

وتدل فيما يقول السيوطى على أن مؤلفها كان على مذهب الكوفيين فى النحو ، لأنه استعمل بعض مصطلحاتهم ، وتوفى سنة ٧٢٣ [٣] .

---

(١) بغية الوعاة : ١ : ١٣٠ .

(٢) الهمع : ١ : ٢٠٤ .

(٣) بغية الوعاة : ١ : ٢٣٨ .

٥ – أبو حيان :

هو محمد أثير الدين يوسف . ولد ببلَد على مقربة من غَرْناطة سنة ٦٥٤ . وأخذ عن جمع كبير من علماء المشرق والمغرب . ونبغ فى علوم كثيرة . وقد استقر فى القاهرة بعد تجوال فى بلاد مختلفة . وتصدر بها للتدريس .

ومن مؤلفاته : التذييل والتكميل فى شرح التسهيل . وارتشاف الضَّرَب من لسان العرب . وتفسير البحر المحيط . وتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ [١] .

وكان يمنع الاستشهاد بالأحاديث . ولا يرضى عن الخلاف فى المسائل النظرية التى لا جدوى منها فى اللغة : كالخلاف فى أصل المرفوعات والمنصوبات ، فيقول : « وهذا الخلاف لا يجدى » [٢]

(١) المصدر السابق : ١ : ٢٨ ، ونشأة النحو : ٢٦٦ .

(٢) الهمع : ١ : ٩٣ .

سيرة النحو

لم يكد أبو الأسود يبدأ وضع النحو ، ويكتب منه ما كتب ، ثم يعلَم الناس نبأه حتى أسرع إليه نفر من الطلاب يسمعون منه ، ويتتلمذون له ، ثم يقبل عليهم من بعد طلاب آخرون يصنعون صنيعهم هم مع أبي الأسود .

وهكذا تمضى المسيرة فوجاً بعد فوج ، كلما مضى فوج خلفه آخر ، على مدى نحو أربعة عشر قرناً . وما منهم إلا صانع للنحو صنيعاً ، أو مُضيفٌ إليه جديداً . كلٌّ على مقدار ما يتاح له ، ويفتح الله به عليه .

وكان عبد الله بن أبي إسحاق أول من ذكر الناس له عملاً فى النحو بعد أبي الأسود ، فقالوا : إنه فرع النحو ، وقاسه ، وأملى كتابا فى الهمز[1] ، والهمز حقيق أن يؤلف فيه كتاب ، فإن له فى القراءات أحوالاً يتنقل بينها ، كما للاسم المعرب أحوال فى الكلام يتنقل بينها أيضاً .

وقد مكّنت له حفاوته بالهمز والتأليف فيه أن يفوز به على أبي عمرو ابن العلاء فى المناظرة التى دعاهما إليها بلال بن أبي بُردة ، إبان ولايته

---

(١) مراتب النحويين : ١٢ .

على البصرة[١] وإذن يمكن أن يقال : إن عبد الله بن أبى إسحاق هو أول من ألف كتابا فى الصرف ، وكانت وفاته سنة ١١٧ .

وألف عيسى بن عمر كتابين فى النحو ، نوه بهما الخليل فى بيتين ، رددتهما كتب التراجم المختصة ، وهما :

ذهب النحو جميعا كلُّه غير ما أحدث عيسى بن عمرْ
ذاك إكمال ، وهذا جامع وهما للناس شمسٌ وقمر

واسم الكتاب الأول يدل على أنه أكمل نقصاً ، واسم الآخر يدل على أنه جمع متفرقاً . وفى هذا إشارة إلى أن النحو لعهد عيسى بن عمر كان قد قطع فى سبيل النمو شوطاً بعيداً . وكانت وفاة عيسى سنة ١٤٩ . وبقى الكتابان أو أحدهما إلى القرن الثالث ، فيذكر المبرد أنه قرأ أوراقاً من أحدهما ، فكان كالإشارة إلى الأصول[٢] .

ثم جاء كتاب سيبويه ، فبهر الناس ، واستأثر بإعجابهم ، فقد رأوا منه قصراً منيفاً ، شامخ الأعالى ، لا يسع الناظر إليه ، ولا الداخل فيه ، إلا أن يسبح الله الذى خلق الخليل ، وجعله خازن ذخائره ، وخلق سيبويه ، وجعله مهندس بنيته .

إنه اللغة فى نحوها وصرفها وأصواتها ، بل فى أصول بلاغتها أيضاً ، وإنه النحو فى أحكامه وقضاياه ، وفى أقيسته وعلله ، وفى أصوله

---

(١) أخبار النحويين البصريين : ٢٦ .

(٢) مراتب النحويين : ٢٣ ، وطبقات النحويين : ٣٧ .

وفروعه ، وفى مناهجه وشواهده . لم يدَع من ذلك للذين جاءوا من بعده إلا يسيراً لا يحسب له حساب . والذين قالوا : إنه قرآن النحو لم يُبْعدوا ولم يسرفوا . لقد ملأ الدنيا علماً ونفخ فى الناس روحاً من البحث ما كانت لولاه لتكون .

وما نريد أن نَبخس فضل السابقين من سلَف سيبويه ، فقد أمده كثير منهم بقدر عظيم من الآراء والأحكام ، ولا سيما يونس بن حبيب ، والأخفش الأكبر ، وأبو عمرو بن العلاء ، فكان لهم بذلك جهد مشكور فى صنع الكتاب . وفى ظهوره فجأة على هذه الصورة شاهد صدق على مبلغ الجِد والإخلاص فى دراسة النحو وتنمية مادته ؛ فليس بين ظهوره وابتداء وضعه سوى قرن واحد ، يزيد قليلاً . ولكنها الهمة الكبرى والمطلب الجليل يصنعان العجب العُجاب .

ولم يكُفَّ النحاة بعد سيبويه ، ولافترت هِمتهم عن التأليف فى النحو ، فألفوا فيما يخطر منه بالبال وما لا يخطر ، لا تكاد تصرفهم عنه الفتن واضطراب الأحوال ، فكان من ذلك ثروة هائلة من كتبه ، تتخالف موضوعاً وحجماً ، ما بين مبسوط ، ووسيط ، ووجيز ، أكثرها فى النحو والصرف معاً ، وبعضها فى النحو خاصة أو الصرف خاصة .

وتنوعت عبارات الكتب ، فواضحة وغامضة ، ومجملة ومفصلة ، وقاصدة ومستطردة ، يشوبها قليل أو كثير من تجريد الفلسفة وصرامة المنطق . وما كان ممكناً أن يبرأ النحو منهما ، فقد صارت لهما الغلبة على

مناهج الدرس ومذاهب التفكير أيام ازدهار الحياة العلمية . فكان من أثرهما أن غمضت العبارة قليلاً أو كثيراً ، وخاصة فى كتب المشرق ، وبعض كتب العصور الأخيرة .

على أن لغموض العبارات أسباباً أخرى ، كإجداب القريحة ، وضعف ملكة البيان . وقد كان المازنى ممن يصعب الفهم عنهم[١] ، ومن العجيب أن يتعمد بعض النحويين الغموض ، بل أن يكون منهم من يعيب الوضوح ، ويرى أن الأخذ به يُزرى بالنحو ، فقد قيل للأخفش : لِمَ لا تجعل كتبك مفهومة ؟ فقال : أنا رجل لم أضَع كتبى هذه لله ، وليست هى من كتب الدين . ولو وضعتها هذا الوضع الذى تدعونى إليه قلت حاجتهم إلىّ فيها ، وإنما كانت غايتى المنالة[٢] .

وكان السيرافى معروفاً بوضوح العبارة ، فلما ألف كتابه الإقناع فى النحو لم يرق ابنه أن يكون على ما رأى من السهولة ، فكان يقول : « وضع والدى النحو فى الزبالة »[٣] !

هكذا كان النحو نشوءاً وارتقاء فى البصرة ثم الكوفة ، وهو ما يقضى به منطق الواقع ، فلم يكن بجزيرة العرب ولا بالبلاد المفتوحة حاجة عاجلة إليه : فأما الجزيرة فوطن العرب والعربية ، وأما البلاد المفتوحة

---

(١) مراتب النحويين : ٧٨ .

(٢) الحيوان : ١/٩١ .

(٣) بغية الوعاة : ١/٥٠٨ .

فكان أهلها هم الكثرة الكاثرة ، وكان العرب وافدين عليهم ، وهم القلة القليلة ، ولم يكن الخِلاط أول الأمر كثيراً ولا عامًّا بين هؤلاء وهؤلاء ، وإنما كان بين الرءوس من الفريقين وعلى قدر الحاجة الماسة ، ومن اليسير أن تكون الترجمة إذ ذاك هى وسيلة التفاهم بينهما والخطاب . فلمن يوضع النحو إذن ، وما الحاجة الدافعة إلى المبادرة إليه ، والتفرغ له ، والتأليف فيه ؟ ومثَل الفاتحين إذ ذاك فى هذه البلاد ، كمثل البعثات السياسية التى تمثل دولها فى دول أخرى فى عصرنا ، أوتكاد .

من أجل ذلك تخلفت البلاد المفتوحة عن مواكبة مسيرة النحو فى البصرة والكوفة . ولم يتهيأ لها أن تشارك فيها بالدراسة المتخصصة والتأليف الرفيع إلا حوالى القرن الثالث حين دعت الحاجة إلى شد أزر العربية . والحفاظ على سلامتها .

وظل النحو على ما كان له من شأن إبان عظمة الدولة . فلم يتوقف فى مسيرته . ولا غض منه أن تضعضعت الخلافة . وأصبحت الدولة مِزَقاً متناثرة . يقوم علَى كل مِزْقة دُويلة . بل لعله أن يكون كغيره من العلوم قد زاد خصباً ونماءً . فقد كان بين أصحاب هذه الدويلات تنافس ، وفيهم طموح . كل يحاول أن يجتمع بحضرته من العلماء والشعراء مثل من كان منهم بحضرة الخلفاء وأكثر ممن بحضرة أقرانه من أصحاب الدويلات . فجعلوا يجتذبونهم . ويحببون إليهم المقام فى

ظلالهم ، بما كانوا يجزلون لهم من الجوائز ، ويولونهم من التكرمة والإجلال ، لا فرق فيهم بين عربي وأعجمي .

فكان لهم ما أرادوا ، وقصدَهم العلماء والشعراء ، يؤلف العلماء لهم الكتب ، وينظم الشعراء لهم المدائح : فهذا أبو على الفارسى كان عند سيف الدولة الحمدانى ، ثم استدعاه عضد الدولة بن بويه ليؤدب أولاد أخيه ، فمضى إليه أبو على ، وألف له كتاب الإيضاح ، فعدّه قصيراً ، وكانت له مع أبي على مجالس ومساءلات فى النحو(١) .

وولّت الدولة الفاطمية ابن بابشاذ ، ثم ابن بَرى أمر ديوان الإنشاء لنظر ما يصدر عنه من رسائل ، وإصلاح ما عسى أن يشوبها من أخطاء(٢) ، ووفد تاج الدين الكِندى على فرّوخشاه ابن أخى صلاح الدين فى دمشق ، فأكرم وفادته واستوزره ، وقرأ عليه المعظم عيسى الأيوبى كتاب سيبويه وشرح الإيضاح(٣) . ووفد ابن الحاجب على الملك الناصر داود بالكرك ، فأعظم قدره وقرأ النحو عليه(٤) وأهدى الغورى إلى السيوطى خَصيًّا وألْف دينار فردّ الألف . وأخذ الخصى وأعتقه ، وجعله خادماً فى الحجرة النبوية(٥) .

---

(١) بغية الوعاة : ٤٤٦/١ .

(٢) المصدر السابق : ١٧/٢ ، ٣٤ .

(٣) المصدر السابق : ٥٧٠/١ .

(٤) الحياة العقلية فى عصر الحروب الصليبية : ٢٠٧ .

(٥) تاريخ الجبرتى : ٢٢٦/١ .

وكثير من الناس يمقتون النحو ، لكثرة الخلاف وتشابك الآراء فيه . ولا يد لأحد فى هذا ، فهو من عمل الظروف والأحوال . لقد تداول العلماء النحو يوسعونه دراسة وبحثاً على توالى العصور . وكثير من شواهده تتعدد رواياته ، والنحويون كغيرهم تتفاوت حظوظهم من العلم ، وتتفاوت درجاتهم فى التذوق والفهم .

ولم يفت النحاة آخر الأمر أن ييسروا النحو على طالبيه . فتناولوه بالنظم والاختصار ، وأشهر منظوماته ألفية ابن معط وألفية ابن مالك . ولا خلاف أن الكلام المنظوم أسهل حفظاً وأبقى فى الذهن أثراً . على أن آراء النحاة فى كثرتها وتخالف مذاهبها إن تكن ترهق المتعلمين فى درس النحو – فإن فيها عوناً محموداً للغويين الذين يرقبون اللغة المعاصرة فى تطورها واستحداث أساليب وألفاظ فيها . فليس يعدمهم أن يقفوا منها على رخصة ، أو يهتدوا بها إلى وجه يقبل عثارها ، ويجيز استعمالها فى فصيح الكلام . ومن النحاة من اتخذ النظم أداة لإلغاز بعض مسائل النحو . واشتهر من هؤلاء السخاوى المتوفى سنة ٦٤٣ [١] ، والد ماميني المتوفى سنة ٨٣٧ [٢] . وهو نوع من المهارة الذهنية لا قيمة له ولا جدوى منه .

---

(١) بغية الوعاة : ١٩٢/٢ .

(٢) المصدر السابق : ٦٦/١ .

النحاة فى المجتمع

ما من أحد يمارس عملاً حتى يُعرف به ، ويُنسب إليه – إلا خلف فيه أثراً متميزاً . وقد أورث النحو أصحابه الأولين غَيرة على اللغة ، وجرأة على نقد المخطئين فيها . فضاق بهم خلق كثير .

قال الأخفش : كان أمير البصرة يقرأ قوله تعالى فى سورة الأحزاب من آية ٥٦ : (إنّ اللهَ وملائكتَه يُصلُّون على النبى) بالرفع ، فمضيت إليه ناصحاً ، فانتهرنى ، وتوعّدنى ، وقال : تلحِّنون أمراءكم ؟[1] وكان الشعراء أشد الناس سخطاً عليهم لذلك ، فهجوهم ، وسخروا منهم .

ومن النحاة من كان يتقعر فى كلامه ، كأبى علقمة النحوى ، فقد رأى عبداً حبشياً يضرب الأرض بآخر صَقَلبىّ ، ويُدخل ركبتيه فى بطنه ، فلما أُدخل للشهادة قال : رأيت هذا الأسحم قد مال على هذا الأبقع ، فحَطّأه على فَدْفَدٍ ، ثم ضفطة بِرَضْفَتيه ، فلم يفهم الأمير كلامه وضاق به فحسر عن رأسه ، وقال للصقلبى : شُجّنى خمساً . وأعفنى من شهادة هذا[2] .

---

(١) إنباه الرواة ؛ ٢ : ٤٣ .

(٢) بغية الوعاة : ٢ : ١٣٩ .

على أنه كان من النحاة ظرفاء ، منهم سعد بن شدّاد ، إذ حضر مجلس زياد ، وقد ترافع إليه بنو راسب والطُّفاوة فى مولود . فقال سعد : أيها الأمير ! يلقى المولود فى الماء ؛ فإن رسب فهو من راسب ، وإن طفا فهو من طُفاوة ، فأخذ زياد نعله ، وقام ضاحكاً[١] . وقال محمد بن موسى الدوالى :

وقائلةٍ : أراكَ بِغير مال وأنت مهذَّب علَم إمام
فقلت : لأن لاماً عكس مال وما دخلَت على الأعلام لام[٢]

وكان النحاة فى رزقهم ، وأحوال معيشتهم ، وسيرتهم فى الناس كسائر الطوائف ، فكان الكسائى والفراء من مؤدبى الأمراء وأبناء الكبراء . وكان ثعلب يقتضى كل شهر ألف درهم يجريها عليه محمد ابن عبد الله بن طاهر ، وكان مع ذلك حريصاً مقترًا[٣] .

وكان المبرِّد يعلم الزجّاج النحو ، فيعطيه الزجاج كل يوم درهماً[٤] . وكان ابن الدهان من أئمة النحو ، وكانت له مشاركة فى الفقه والأصول ، وكان مع ذلك شديد الفقر ، يجلس فى الحلقة وعليه ثوب لا يكاد يستره[٧] . وكان السيرافى لا يخرج إلى مجلس الحكم ، ولا إلى

---

(١) بغية الوعاة : ٢ : ٣٠ .
(٢) المصدر السابق : ١ : ٢٥٢ .
(٣) طبقات النحويين : ١٥٥ – ١٦٧ .
(٤) إنباه الرواة : ١ : ١٥٩ .
(٥) بغية الوعاة : ١ : ٥٢٣ .

مجلس التدريس فى كل يوم إلا بعد أن ينسخ عشر ورقات يأخذ أجرها عشرة دراهم تكون قدر مئونته [١] .

وطلب القائم بأمر الله محمد بن الوراق ليعلم أولاده ، وكان ضَرِيراً . فلما وصل إلى باب حجرة الخليفة ، قال له الخادم : وصَلْت ، فقبل الأرض ، فلم يفعل وقال : السلام عليك يا أمير المؤمنين ، وجلس . فقال القائم : وعليك السلام يا أبا الحسن ، أدْن منّى ، فدنا ، فسأله عن مسائل أجاب عنها [٢] .

وكان عبد الله بن الخشاب يلعب بالشطرنج مع العوام على قارعة الطريق ، ويقف فى الشوارع على حلق المشَعْوذين ، واللاعبين بالقرود والدِّببة . وكان إذا أراد شراء كتاب غافل الناس ، وقطع منه ورقة ، ليأخذه بثمن بخس [٣] !

وليس كل ما ترك النحاة من النحو هو هذا المدون فى كتبه أبواباً وفصولاً ، ولكنهم تركوا قدراً صالحاً من المنظرات فيه ، تعد دروساً عالية فى المساجلة والتطبيق . وأشهرها مناظرة سيبويه والكسائى : فقد جاء سيبويه الكوفة ، لا يصحبه أحد من شعيته ، ليناظر الكسائى فى وطنه ، وبين تلاميذه ومريديه .

---

(١) إنباه الرواة : ١ : ٣١٣ .

(٢) بغية الوعاة : ١ : ٢٥٥ .

(٣) بغية الوعاة : ٢ : ٣٠ .

والتأم الجمع فى مجلس يحيى البرمكى ، فقال الكسائى لسيبويه : تسألنى أو أسألك ؟ قال سيبوبه : بل تسألنى أنت . قال الكسائى : كيف تقول : قد كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور ، فإذا هو هى ، أو هو إياها ؟ قال سيبويه : فإذا هو هى ، ولا يجوز : هو إياها . قال الكسائى : يجوز الوجهان . فاحتكموا إلى مَن بباب يحيى من العرب . فوافقوا الكسائى [1] ، فاستكان سيبويه ، وانصرف مهزوماً .

ويَرى كثير من النحاة أن العصبية تدخلت فى المناظرة ، على نحو مّا . ولا أراه بعيداً ، فالكسائى وثيق الصلة بكبار الدولة ، وهو بعد إمام نحاة الكوفة بلا خوف .

وبعد ، فقد صنع النحاة للعربية أعظم ما يستطيع البشر أن يصنعوا . ويرحم الله أبا العلاء المعرى إذ يقول : عن ثلاثة من كبرائهم :

تَولّى سيبويه وجَاش سَيْب — مِن الأيام ، فاختلّ الخليل
ويونسُ أوحشت منـه المغانى — ودونَ مصابه الخطبُ الجليل
أتت عللِ المنون فما بكاهم — من اللفظ – الصحيحُ ولا العليل
ولو أنَ الكلام يحس شيئاً — لكان له وراء هم أليل [2]

---

(١) انظر مثلا وفيات الأعيان : ٣ : ١٣٤ ، والمغنى : ١ : ٧٤ .

(٢) اللزوميات : ٢ : ١٥٧ ، الأليل : الصراخ عند المصيبة .

رقم الإيداع ١٩٧٨/٥٢٨٩

الترقيم الدولى ISBN ٩٧٧ - ٢٤٧ - ٥٣٤ - ٠

١/٧٨/٢٧٨

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

هـذا الكتـاب

يقدم هذا الكتاب موجزا لتاريخ النحو العربى فى نشأته وتطوره وعوامل التأثير فيه . وأشهر علمائه الذين حملوا أمانته . فحفظوها وأدوها أحسن الأداء . .

وعلم النحو هو أول علم دون فى الإسلام . وتتابعت عليه أجيال من العلماء الجادين الذين وضعوه فى صورته المتكاملة . وأفادوا به الأجيال المتلاحقة إفادة لا تنقطع مادامت اللغة ومادام الفكر العربى . .

١٠ م

بسم الله الرحمن الرحيم

قام بإعداد هذه النسخة pdf
وفهرستها ورفعها :
د محمد أحمد محمد عاصم
نسألكم الدعاء